

نعمة الحياة (مقال فلسفى)

عندما نشرت منذ عدة أيام مقطوعة نثرية بعنوان (الحياة فى يوم) علّق عليها صديقى أ.د. حسن الميندارى بقوله : نص قصصى بديع يا حبيبى المشجاع .. القادر على المواجهة . وأنا أشكره كثيرا على ذلك ، لكننى أتوقف قليلا عند عبارة (المقدرة على المواجهة) فالمقصود أننى كنت قد كتبت عن لقاء الموت ومواجهته بكل هدوء . والواقع أننى أعتبر كلا من الموت والحياة وجهان لعملة واحدة ، فلا حياة بدون موت ولما موت بدون حياة . غير أننا نستقبل الحياة بفرح وابتهاج ، ويصدمنا الموت فنبكى ونصرخ ! صحيح أن الموت يحرمنا من الأهل والأحباب ، فيشعل حرقه قلوبنا عليهم ، لكن الحياة أيضا تمنحنا الكثير من الحب والصدقة ، ومع ذلك فإن بعض الحب قد يتعثر ويتلاشى ، وبعض الصدقة قد تصاب بلعنة الخيانة . وهذا يعنى أنهما قد (يموتان) أمام أعيننا ونحن أحياء !

**

أنتقل من هذا إلى اللقاء بعض الضوء على حياة الإنسان فى هذه الدنيا . ولما بد من الاعتراف بأنها نعمة إلهية إذا ما قورنت بظلمة العدم . وبيان ذلك أن آلاف الحيوانات المنوية تذهب للعدم ، بينما لا يبقى سوى واحد منها فقط هو الذى يتاج له فرصة الاندماج مع بويضة المرأة ، ليتشكل منهما ذلك الكائن الحى الذى هو الإنسان . وهذا يثبت أنه منذ البداية توجد عملية اختيار إلهى للإنسان الذى سوف يخرج بعد تسعة شهور لينمو ويكبر حتى يصبح بقدر أبيه وأمه .

**

أما النعمة الثانية فتتمثل فى (المفترزة الزمنية) التى حددها الله تعالى لكل إنسان ، حتى يمارس وظيفته المقدره له فى هذه الدنيا . والمفترزة الزمنية تلك ، التى هى سنوات العمر ، تكون كافية جدا لكى يحقق كل إنسان فيها ما يجب عليه أو ما هو ممكن له ، سواء كان خيرا أو شرا أو هما معا . والملاحظ أن هناك من يكون عمره قصيرا ، ومع ذلك ينتج الكثير من الأعمال ، فى حين يوجد فى المقابل من يعمر لأكثر من ثمانين أو حتى تسعين سنة دون أن يترك وراءه شئنا يذكر ! قال الحسن البصرى : (يا ابن آدم .. إنما أنت أيام ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك .)

**

تلك فقط مقدمات لما ينبغى أن يتنبه له الإنسان العاقل . وهو أن كل يوم يفتح به حياته فى الصباح الباكر لا بد أن يملأه بفعل الخير ، فإن لم يستطع فعليه أن يتجنب الشر ، وهذا يعنى أن يكون هناك حساب يومى فى المساء قبل النوم لكل ما قام به طوال يومه الطويل ، وأنا أصف اليوم بالطول لأنه يشتمل على الساعات والدقائق والثوانى . وقد ورد فى الحديث النبوى (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره : فيما أفناه ؟ وعن علمه : فيما فعل ؟ وعن ماله : من أين اكتسبه ؟ وفيما أنفقه ؟ وعن جسمه : فيما أبلاه ؟) والقرآن الكريم يقول : (أحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) [المؤمنون، آية 115] .

**

وهكذا يبدو أن نعمة الحياة الإلهية لم توهب للإنسان اعتباطا أو بالصدفة ، وإنما هى اختيار دقيق جدا ومقصود تماما ، كما أن له أبعاده وهواقبه ، لكن كم من الناس يدرك ذلك ؟ — القليل ، والقليل جدا ، أما الكثيرة الغالبة فإنهم يعيشون حياتهم فى غفلة كاملة ، وتبعاً للظروف المحيطة بهم ، وتمشياً مع العادات السيئة ، وخضوعاً للتقاليد المتوارثة حتى ولو كانت خاطئة . وهم فى معظم الأحوال لا يتساءلون : لماذا هم موجودون ؟ وإلى أين هم صائرون ؟ والواقع أن القرآن الكريم يذكر بكل وضوح أن أمثال هؤلاء الناس هم الذين سيكوّنون (حصب جهنم) أى الوقود الذى يجعلها دائمة الاشتعال لعقاب العصاة والكافرين [سورة الأنبياء ، الآية 98] .

**

ولكى لا ينتهى هذا المقال — لدى البعض — بقدر من اليأس أو التشاؤم ، فإننى أؤكد أن باب الأمل يظل مفتوحا أمام الإنسان الذى ضيّع الكثير من أيام عمره فيما لا يفيد ، أو حتى فيما يضره ، وهذا الباب يتمثل فى (التوبة) بمعنى التوقف تماما عن المعاصى ،

والماعتذار عنها ، مع الماعتراف بالتقصير ، والتصميم على المضيّ في الطريق المستقيم ، وتقوية الرجاء في عفو الله وغفرانه ، وهو تعالى الذي وصف نفسه بأنه الغفار الرحيم .
